المجنون[١]

ـ ١ ـ

جاء يمشي هادئاً يتخيَّلُ في مِشْيته ، يَرْجُفُ بين الخَطوة والخطوة ، كأنَّه من كِبره يُشعرك أنَّ الأرضَ مُدرِكةٌ : أنَّه يمشي فوقها . . . ولا ينقلُ قدمَه إذا خَطَا حتَّى ينْهضَ برأسه ، يُحرِّكه إلى أعلى ، فما تدري أهو يريد أن يطمئنَّ إلى أن رأسَه معه . . . أم يُخَيَّل إليه : أنَّ هذا الرأسَ العظيم قد وُضع على جسمه في موضع راية الدَّولة ، فهو يَهزُّه هزَّ الرَّاية .

وأخذتْه عيني ، وليس بيني وبينه إلا طولُ غرفةٍ ، وعرضُها ، فإذا هو زائغُ البصر ، كأنَّما وقع في صحراءَ يقلِّب عينَه في جهاتها متحيِّراً ، متردِّداً ، ثمَّ كأنَّما رُفِعَ له في أقصاها جبلٌ ، فأخذ إلى ناحيته .

ورحَّبتُ به ، وأجلستهُ إلى جانبي ، فأخذ يَسْتَعْرِفُ إليَّ بذكر اسمه ، وجماعتِه ، وبلده ، لا يزيد على ذلك شيئاً ، كأنَّه عنترةُ بني عَبْسٍ : لأرضه من طبيعتها جغرافيّاً ، ومن اسمه جغرافيّاً على حِدَة . . . فلمَّا رآني لا أُثْبِتُه مَعْرِفةً قال : إنَّ بك نسياناً .

قلت : وكثيراً ما أنسى غير أنَّ اسمك ليس من هذه الأسماء التي تذكِّر بتاريخ .

قال : هذه غلطةُ الجرائد . . ومهما تنسَ من شيءٍ فلا تنسَ : أنَّك أستاذُ « نابغة القرن العشرين[٢] » .

فسرَّحتُ فيه نظري ، فإذا أنا بمجنونٍ ظريفٍ ، أمردَ ، أهيفَ ، يكاد برخاوته ، وتفكُّكه لا يكون رجلاً ، ويكاد يبدو امرأةً بجمال عينيه ، وفتورهما .

وتوسَّمتُ ، فإذا وجهٌ ساكنٌ ، منبسطُ الأساريرِ ، ممسوخُ المعاني ، يُنبئ بانقطاع صاحبه ممَّا حوله ، كأنَّ دنياه ليست دنيا النَّاس ، ولكنَّها دنيا رأسِه .

---

(١) انظر حديث هذا المجنون وخبره في «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي» . (س) .

(٢) هذا الشاب المجنون من الأذكياء ، وكان قد انتهى إلى مدرسة المعلمين الأولية ، ثم خُولط في عقله ، فتركها ؛ وكلُّ ما يمرُّ في هذا المقال بين قوسين فهو بنصِّه من كلامه .

وتأمَّلتُ ؛ فإذا طفولةٌ متبلِّدةٌ قد ثبتتْ في هذا الوجه لتُخرِجَ من بين الرَّجلِ والطِّفلِ مجنوناً ، لا هو طفلٌ ، ولا رجل .

وتفرَّستُ ، فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصَّفحة ، قَتْلاها أفكارُ المسكين ، وعواطفهُ .

وتبيَّنتُ ؛ فإذا رجلٌ مُسْتَرْخٍ ، مُتَفَتِّرُ البدن ، خاثرُ النَّفس ، كأنَّه قائمٌ لِتَوِّه من النَّوم ، فلا تزال في عينيه سِنَةٌ ، وكأنَّه يتكلَّم من بقايا حُلُمٍ كان يراه . . .

وخُيِّل إليَّ من هذا الخُمولِ في هذا الشَّابِّ : أنَّ عليه جوّاً من تثاؤبِه ، وأنَّ المكانَ كلَّه يتثاءبُ ، فتثاءبت .

فلمَّا رأى ذلك مني ؛ ضحك ، وقال : إنَّ « نابغة القرن العشرين » رجلٌ مغناطيسيٌّ عظيمٌ ؛ فها هو ذا قد ألقي عليك النَّوم . . وحسبُكَ فخراً أن تكونَ أستاذَه ، وأخاه ، وثِقتَه ، « فليس على ظهرِها اليوم أديبٌ غيري وغيرَك » .

قلتُ في نفسي : إنَّا لله ، ما يعتقد الرجلُ أن على ظهرها مجنوناً غيره ، وغيري ، وكأنَّما ألمَّ بذلك ، فقال : لستُ مجنوناً ؛ ولكنِّي كنت في البيمارستان .

قلت : أهو البيمارستان ؛ الذي يسمَّى مستشفى المجاذيب ؟

قال : لا ! إنَّ هذا الذي تسمِّيه أنت هو هو مستشفى المجاذيب ، أمَّا الذي سميتُه أنا ؛ فهو مستشفى فقط .

وذكرتُ عندئذٍ أنَّ من المجانين قوماً ظُرفاء ، يَدْخُلُهم الفسادُ في عقولهم من ناحيةِ فكرةٍ ملازمةٍ ، لا تَبْرَحُ ، فلا يكون جنونُهم جنوناً إلا من هذا الوجه ، وسائرُ أحوالهم كأحوال العقلاء ، غير أنَّهم بذلك طيَّاشون ، متقلِّبون ، إذا ازْدُهِيَ ؛ لم يُطِقْهُ النَّاسُ من زَهْوه ، وكبريائه ، وتنطُّعِه[1] ، كأنَّه واحدُ الدُّنيا في هذه الفكرة ، وكأنَّ بينه وبين الله أسراراً ؛ ويظنُّ عند نفسه : أنَّه أعقلُ النَّاس في أرقى طبقاتِ عقله ، وما جنونُه إلا في هذه الطَّبقة وحدها .

ومثلُ هذا لا بدَّ له ممَّن يستجيبُ لهذيانه[2] كما يحرِّكَ فيه

(١) « تنطعه » : تنطع في كلامه : تكلم بأقصى حلقه تكبراً .

(٢) « هذيانه » : الهذيان : اضطراب عقلي مؤقت ، يتميز باختلاط أحوال الوعي .

خِفَّتَه[١] ، وطيشَه ، وزهوَه ، وليكونَ عنده الشَّاهدَ على هذا الوجود الخياليِّ المُبدَع ؛ الذي لا يوجد إلا في عقله المختلِّ . فإذا هو ظفر بمن يُحاسِنُه ، أو يصانعُه ، أو يجاريه ، حَسِبَه مُذْعِناً ، مؤمناً ، مصدِّقاً ، فلا يَدَعُه من بعدها ويتعلَّق به أشدَّ التعلُّق ، ويراه كأنَّه في ملكه . . فيتَّخذُه صفيّاً وهو يعتقد أنَّه رقيقٌ ؛ وقد يَزعُمُه أستاذَه لِيُفهمَه من ذلك بحساب عقلِه . . . أنَّه تلميذُه .

وخشيتُ أن يكون (نابغة القرن العشرين) لم يُسمِّني أستاذَه إلا بحسابٍ من هذا الحساب ، فهو سيُعطي الأستاذيةَ حقَّها ، ولكن كما هو حقُّها في لغة جنونه . . . فأُصبِحُ في رأيه تلميذَه ، وصنيعتَه ، ومحدِثَ هذيانه ، وثقتَه ، وملجأه ، والمحاميَ من ورائه .

قلت في نفسي : إذا أنا تركتُه جالساً كان هذا المجلسُ مَثابَتَه[٢] من بَعْدُ ، فلا يعرفُ له محلاً غيره ، ويصبح كما يقال في تعبير القانون « محلَّه المختار » ، فيَتَطَرَّأُ إليَّ لسببٍ ، ولغير سبب ، ويقعُ في أوقاتي وقوعَ السَّهوِ لا حسابَ عليه ، ويَضيعُ فيه ما يضيع . فأجمعتُ أن أصرِفَه راضياً باليأس ؛ وقد انتهت نفسُه من معرفتي ، وانتهى عقلُه إلى الرأي : أنِّي لا أصلح له أستاذاً ، لا بحسابه هو ، ولا بحساب النَّاس .

فقلت له : ظنِّي بك أنَّك أستاذُ نفسك ، ولا يَحسنُ بنابغة القرن العشرين أن يكونَ له في القرن العشرين أستاذ ؛ وأراك قد فرغتَ للأدب ، أمَّا أنا فمشغولٌ بأعمال وظيفتي ، وقد جاء من العمل ما تراه ، وتكاد لا تفي به السَّاعاتُ الباقيةُ من الوقت و . . .

فقطع عليَّ ، وقال : إنَّ الوقت ليس في السَّاعة ؛ والدَّليلُ أنِّي أعطِّلها ، فيتعطَّلُ الوقت ، ولا يكون فيها يومٌ ، ولا ساعةٌ ، ولا ثانيةٌ ، ولا دقيقةٌ .

فقلت : ولكنَّك إذا عطلتَها لم تتعطل الشَّمسُ ؛ التي تعيِّنُ منازِلَ النَّهار ، فسيَمُرُّ الظُّهرُ ، ويَحينُ العصر ، و . . .

قال : ويأتي غد ، وإنَّما أنا معك اليوم فقط . . . ويجب أن تغتبط بأنَّك أستاذُ

---

(١) « خفته » : حُمْقه .

(٢) « مثابته » : المثابة : الموضع الذي يُرْجَعُ إليه مرة بعد مرة .

(نابغةِ القرن العشرين) ، فقد قرأت الكثير في الأدب ، وقرأتك ، فما كان لي رأيٌ إلا رأيتُه لك . . . ولا صحَّت عندي نظريَّةٌ إلا رأيتُك قد أبديتَها ، وأنا لا أعتقد أدباً في مصر إلا ما توافَيْنا عليه معاً « ولا أسلِّم جدلاً ، ولا جدَلاً أسلِّم : أنَّ في مصر أدباء ينالون منِّي شيئاً ، فهو أنا ، وأنا هو »[1] ، ولئن لم يذعِنوا (لنابغة القرن العشرين) فليعلَمُنَّ : أنَّهم « وقعوا مني موقعَ نملةٍ على صخرةٍ . . . هذا من جهةٍ ، ومن جهة أريد سجائر ، وليس معي ثمنُها » . . .

فتهلَّلْتُ ، واستبشرتُ ، وقلتُ له : هذا قرش فهلمَّ فاشتر به دخائنك ، وفي رعاية الله . ثم استويتُ للقيام ، ولكنَّه لم يقم ؛ بل تمكَّن في مجلسه .

* * *

وكرهتُ أن أتغيَّر له ، وما أشكُّ ؛ أنَّه في هذا صحيحُ التَّمييز ؛ فما أسرعَ ما قال : إنَّ « نابغة القرن العشرين » فتىً قويُّ الإرادة ؛ فإذا هو لم يصبر عن التَّدخين ساعاتٍ ؛ فما هو بصبورٍ . . . وإذا لم يُثْبِتْ لك هذا الأمر عن مُعَاينَة . . . فما أعطيتَه حقَّه .

فقلت في نفسي : لقد غرستُ الرَّجلَ من حيث أردتُ اقتلاعَه ، وأيقنتُ : أنَّه من عقلاء المجانين الذين تتغيَّر فيهم العاطفةُ أحياناً ، فتلهمهم آياتٍ من الذَّكاء ، لا يتَّفق مثلُها إلا لنوابغ المنطق ؛ وذكرت (بهلول) المجنون الذي حكوا عنه : أنَّ إبراهيم الشَّيبانيَّ مرَّ به وهو يأكل خَبيصاً[2] فقال له : أطعمني . قال : ليس هو لي ، إنَّما هو لعاتِكةَ بنت الخليفة بعثتْه إلي لآكله لها . . .

وقالوا : إنَّه مرَّ بسوق البزَّازين ، فرأى قوماً مجتمعين على بابٍ ، وكان قد نقِبَ ، فنظر فيه ، وقال : أتعلمون من عمل هذا ؟ قالوا : لا . قال : فأنا أعلم .

فقالوا : هذا مجنون يراهم باللَّيل ولا يتحاشَونه ، فالْطِفُوا به لعلَّه يخبركم . ثم قالوا : أخبِرنا . قال : أناجائع . فجاؤوه بطعامٍ سَنِيٍّ ، وحلواء ؛ فلمَّا شبع ؛ قام فنظر في النَّقْب ، وقال : هذا عملُ اللُّصوص .

---

(١) ما بين القوسين هو كلامه بنصِّه كما نبَّهنا إلى ذلك ، والباقي ترجمناه نحن عن معانيه ، وأكثر ما يأتي فهذه سبيله . (ع) .

(٢) طعام كانوا يتخذونه من التمر والسمن . (ع) .

وكانت مجلَّة(الرِّسالة) في يد(نابغة القرن العشرين) ، فوصل الكلامَ بها ، وقال : إنَّه يقرأ كلَّ مقالاتي ، وإنَّه ، وإنَّه ، وإنَّها ، وإنَّها . قلت : فما استحسنتَ منها ؟ قال : (مقالة السِّيما) .

فقلت : متى كان آخرُ عهدِك برؤية السِّيما ؟ قال : أمسِ .

قلت : فأنا لم أكتبْ مقالاً عن السِّيما ، ولكنك أعجبت بما رأيتَ أمسِ فتحوَّل ما رأيتَه حلماً في مقالةٍ .

فأعجبه هذا التَّأويل ، وقال : بمثل هذا أنا (نابغة القرن العشرين) ، فأقرأُ مقالتَك في الغيب من قبل أن تكتبَها .

قلت : إنَّك تكثر أن تقولَ عن نفسك (نابغة القرن العشرين) ، وهذا يَحصرُ نبوغَك في قرنٍ بعينه ؛ فلو قطعتَ الكلمة ، وقلت : (نابغة القرن) ، لصحَّ أن تكون نابغة القرن التَّاسع عشر ، والثَّامن عشر ، وما قبلهما ، وما بعدهما .

فرأيتُ به شَدْهَةً[1] كأنَّه يفكِّر في جنونه ، ثُمَّ أفاق ، وقال : لا ! لا ! وإنَّ ها هنا موضَع نظر ، فلو رضيتُ بنابغة القرن فقط ، لجاء مَنْ يقول : إنِّي نابغة قرن خروفٍ .

* * *

فقلت في نفسي : حَماةٌ مُدَّت بماءٍ[2] ، وإنَّ هذه الوساوسَ لا تنفكُّ تَعرو هذا المسكينَ ما وجد مَنْ يكلِّمه ؛ والأفكار في ذهنه مجتمعةٌ ، مختلطةٌ ، مسترسلةٌ ، كأنَّها ثورةٌ من الكلام ، لا نظامَ لها ، فلأسكتْ عنه ، ولأتشاغلْ بما بين يديَّ .

وسكتُّ ، وأعرضتُ عنه ؛ فجعل طائفُه يعتريه ، وكأنَّ السُّكوتَ قد سلَّط أفكاره عليه ، وكأنَّها أخذت تصيح به في رأسه ، كما يصيح غلمانُ الطُّرق بالمجنون ، لا يزالون به حتَّى يُحْرِدُوه[3] ، ويُفقدوه البقيَّةَ من صبرِه ، وعقله معاً . فغضب (نابغة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالةٍ زَمْهَرَتْ فيها

(١) « شدهة » : دهشة وحيرة .

(٢) هذا مثل في معنى : زاد الطينَ بلَّةً ، والحمأة إذا مدَّها الماء ؛ زادت ، واتسعت . (ع) .

(٣) « يحردوه » : حَرِدَ : اغتاظ ، فتحرَّش بالذي غاظه ، وهمَّ به .

عيناه[١] ، وكلَحَ وجهُه حتَّى خفتُ أن يثورَ به الجنون ، فأقبلتُ عليه ، وتعلَّلتُ بسؤاله : ألك إخوة ؟ ألم ينبغ فيهم نابغة . . . ؟

قال : إنَّ له أخاً يعذبه ، ويُوقعُ به ضرباً ، ويغلِّله بالسَّلاسل ، ويشدُّه « بأمراسِ كَتَّانٍ إلى صُمِّ جَنْدلِ[٢] » ، وأنَّه أنزل به من العذاب ما لو أنزله بحجرٍ ؛ لتألَّم .

قلت : فأنت في حاجةٍ إلى راحةٍ ، ويحسن بك أن تأوِيَ إلى مكانٍ تتمدَّد فيه .

قال : إنِّي منصرفٌ وسأجلس في نَدِيٍّ كذا[٣] ، هذا من جهة ، ومن جهةٍ ليس معي ثمن القهوة .

قلت : فهذا قرش تدفعه ثمناً لها ، فاذهبْ فاستمتعْ بها وبالتَّدخين وبالرَّاحة في ذلك النَّديِّ ، فالمكانُ ها هنا كثير الضَّجيج ، والحركة . واستوفزْتُ للقيام ؛ ولكنَّه لم يَتَحَلْحَلْ من مجلسه .

* * *

ثم قال : أراكَ الآن مُسْتَبْصِراً أنِّي (نابغة القرن العشرين) بعينه .

قلت : بل بعينيه اليمنى ، واليسرى معاً .

قال : لا ! لا ! إنَّك نسيتَ أنَّ العربَ تقول في التوكيد : عينهُ ، ونفسهُ ، وذاتهُ . « أي : أنا نابغة القرن العشرين بعينهِ ، ونفسهِ ، وذاتهِ ، فليس غيري نابغة القرن العشرين » .

وكادت نفسي تخرج غيظاً ، ولكنِّي رأيتُ الحِلم على مثل هذا يجري مجرى الصَّدقة ؛ وقلت : إنَّ أدباء المجانين كثيراً ما يتَّفق لهم الإبداعُ الطَّريفُ إذا علَّلوا شيئاً ، كذلك القاصُّ ؛ الذي كان يقصُّ على العامَّة سِيرةَ يوسفَ عليه السلام ، فقال لهم فيما قال : إنَّ الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا ، فردُّوا عليه : إنَّ يوسف لم يأكله الذئب . قال : فهذا هو اسمُ الذِّئب الذي لم يأكل يوسف .

---

(١) أي : لمعت غضباً .

(٢) عجز بيت لامرئ القيس ، وصدره : فيالكَ من ليلٍ كأنَّ نجومه . انظر : شرح المعلقات السبع ، للزوزني ، تحقيق : يوسف بديوي .

(٣) نحن نستعمل النَّدي لمكان القهوة . (ع) .

فقلت للمجنون : فما العلَّةُ عندك في أنَّ العرب لم يقولوا في التوكيد : عينُه وأذنه ، وأنفُه ، وفمه ، ويدُه ، ورجله ؟

فنظر نظرةً في الفضاء ، ثمَّ قال : ليسوا مجانين فيَخلِطُوا هذا الخلط ، وإلا وجب أن يقولوا مع ذلك : وعمامته ، وثوبه ، ونعله ، وبعيره ، وشاتهُ ، ودراهمهُ . هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ ليس معي أجرة السَّيارة إلى بلدي ، وهي قرشان .

قلت : هذه هي أجرة السَّيارة ، وصَحِبتْك السَّلامة ، ونهضتُ واقفاً ؛ ولكنَّه لم يتحرَّك .

* * *

ثمَّ قال : إنَّك لم تعرف بعدُ « أنِّي أقول الشِّعر في الغزل ، والنَّسيب ، والمدح ، والهجاء ، والفخر ؛ وأنِّي في الخطابة قُسُّ بن ساعِدة ، أو أكثم بن صَيفيٍّ ، وأنِّي صخرٌ لا ينفجر . . . يابسٌ لا ينعصر ، لست كالحجَّاج ، بل كعمر » .

قلت : هذا شيءٌ يطول بيننا ، ولا حاجةَ لك بهذه البراهين كلِّها ، فقد آمنتُ أنَّك نابغة القرن العشرين في الأدب ، والشِّعر ، والخطابة ، والترسُّل .

قال : والفلسفة ؟

قلت : والفلسفة وكلُّ معقولٍ ومنقولٍ ؛ وقد انتهينا على ذلك .

قال : ولكنَّك تحسبني مجنوناً ، أو ممروراً « كما حسبتني الجرائد التي زعمت أن اختفائي في البيمارستان كان لجنوني الفكريِّ ، أو لذكائي الطَّبيعيِّ ، وهو الأصحُّ . . . فبيِّن لهذه الجرائد أني خرجت ، وأني سأطبع الأدبَ بطابع جديد » .

قلت : ولكنِّي لستُ مراسل جرائد . قال : « فاجعلني رسالةً ، وراسِلْها عنِّي ، أو أكتبُ لك أنا ما ترسله ، وما جئتك إلا لهذا ؛ ويجب أن تلحقني بجريدةٍ كبيرة ، وهذه الجرائد تعرفني كلُّها ، وقد تناولتني من جميع النَّواحي الأدبيَّة ؛ فضلاً عن أنِّي كاتبٌ فَذٌّ ، وشاعرٌ فَذٌّ ، وهذا قليل من كثيرٍ ، فهل أعوِّل عليك في صلتي بالجرائد ، أو لا ؟ » .

قلت : إنَّك تعرفهم ، ويعرفونك ، وقد بلَوْتَهم ، وَبَلَوْا منك ؛ فلستَ في حاجةٍ إليَّ عندهم .

قال : « إنَّهم يخشون بأسي ، وقد حسبوني مجنوناً استهوته الشَّياطين ؛ وما علموا : أنَّ شيطانَ الشِّعر هو الذي استهواني ، كما أنَّ شيطان الحبِّ هو الذي استهواك . . . هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ ليس معي ثمن الغداء ، ولا أكلِّفك شيئاً . . . » .

قلت : فهذا قرش للغداء في مطعم الشَّعب . وهم الآن يتغدَّون ، ويُوشِكُ إذا أبطأتَ أن تُوافِقَهم وقد استنفدوا الطَّعام ، وأنت لا تجهل أنَّ القرش في مطعم الشَّعب هو قرشان في القيمة .

قال : صدقت ؛ يُوشِك أن أوافقَهم ، وقد فرغوا من طعامهم ، وغسلوا الآنية . فلأبْقِ هذا للعَشاء ، وسأطوي إلى الليل .

قلت : فمعك الآن ثمن الدُّخان ، والقهوة ، والغداء ، وأجرة السَّيارة إلى بلدك . وقد كان نابغة القرن الثَّالث للهجرة ، واسمه (طاق البصل)[1] يغني بقيراطٍ[2] ، ولا يسكت إلا بدانقٍ[3] . هذا من جهةٍ ، ومن جهة فخذ هذا القرش ثمناً لسكوتك ، وانصرِف .

فشقَّ ذلك عليه ، وقام مُغْضَباً ، وتنفَّستُ بعده الصُّعَداء الطَّويلة . . . وفتحتُ النَّافذة ، واستقبلتُ الهواء النَّقيَّ ، وأخذتُ في رياضة التنفُّس العميق ، ثمَّ زاغتْ عيني إلى الباب ؛ فإذا (نابغة القرن العشرين) مقبلٌ مع نابغة قرنٍ آخر .

* * *

(١) هذا مجنون من مجانين الكوفة في القرن الثالث . (ع) .

(٢) « قيراط » : القيراط في وزن الذهب ثلاث قمحات .

(٣) « دانق » : هو سُدس الدرهم .